مسرحية سارتر "الذباب"
تفسير جديد لقصة أورست

أ.د. ماهر شفيق
أستاذ الأدب الإنجليزى
كلية الآداب – جامعة القاهرة

تروى ثلاثية إسخولوس" الأروستيا" ، كما هو معلوم ، قصة آل بلوبس مبينة المجرى الرهيب الذى يتخذه غضب الآلهة متى استهدفت لـه إحـدى الأسر، وفيها تروح ربات الانتقام يطاردن أورست ، ابن أجامنون ، لأنه ذبح أمه كلايتمسترا جزاء وفاق لها على خيانتها أباه واشـتراكها مـع عـشيقها أيجست فى قتل الأب . وأخيرًا عفون عنه وصرن غافرات للـذنوب. إنهـا قصة الخيانة والولاء ، الأخوة والبنوة والزوجية ، الجريمة والعقاب على نحو يحفر ذاته بعمق فى وجدان القارئ أو المتفرج .

وقد خلفت هذه الثلاثية أثرها – عبر القرون – فى عدد من الأعمـال المسرحية فى مختلف اللغات : من هذه الأعمال ، فـى القـرن العـشرين ، الحداد يليق بإلكترا" (١٩٣١) ليوجين أونيل " ، اجتمـاع شـمل الأسـرة : (١٩٣٩) لـ ت.س. إليوت ، الابن الضال ، (١٩٦٠) لحـاك رتـشاردسون "الذباب" (١٩٤٣) لجان بول سارتر .

تقدم "الذباب" _ أولى مسرحيات سارتر وأعظمها تفـسيره الخـاص لأسطورة أورست الإغريقية وذلك من منظور الفلسفة الوجودية التى تـؤمن بأن وجود الإنسانية يسبق ماهيته ، وتقوم على دعامتين لا تنفصلان : الحرية والمسئولية .

مسرحية " الذباب" إذن ، مدارها قضية الحرية الإنسانية على المستويين الميتافيزيقى والسياسى وما يستتبعه من تبعات . فهى مسرحية مقاومة (قدمت فى باريس فى غمرة الحرب العالمية الثانية) ضد الاحتلال النازى . إن أيجست الذى قتل أجامنون بالتآمر مع عشيقت كلايتمنسترا (زوجة الملك الصريع) يمثل الاحتلال الألمانى الخاصب ، بينما كلايتمنسترا تمثل الفرنسيين الذين خانوا وطنهم وآثروا التعاون مع المحتل ، وأورست وأخذه إلكترا يمثلان قوى المقاومة . وتنشأ الكترا – ابنة أجامنون وكلايتمنسترا – فى القصر مقهورة وخادمة وهى الأميرة نبيلة المحتد التى كانت ، فى حياة أبيها تعنو لها الجباة ، وتطأ مسكا وكافورًا . وثمة الإلهة جوبيتر (زيوس) وهو طاغية كبير يريد ، كإيجست ، استدامة الأوضاع الراهنة والمحافظة على النظام بأى ثمن : نظام الأفلاك فى المجرة ، والنظام السياسى على الأرض سواء بسواء . ولذا يمارس ألاعيب ويجترح معجزاته ويرسل رعوده وبروقه لكى يخيف أفراد الشعب ، ويضمن ولاءهم لملكهم ، ظله عل الأرض . ويشجع جوبيتر وإيجست الشعب على إقامة احتفالات سنوية ينغمس فيها كل إنسان فى الندم على خطاياه ، ويعفر جبهته حزنا ، ويضرع إلى الآلهة سائلا المغفرة ، بينما يرسل عليهم جوبيتر جحافل من الذباب يصم الآذان طنينه ، إنها اللعبة الوطنية لشعب أرجوس : لعبته " الاعتراف العلنى" هذه . على أن أورست – ابن الثامنة عشرة ، وقد غاب عن وطنه خمسة عشر عاما _ لا يلبث أن يصل إلى أرجوس متنكرًا مع مربيه تحت اسم مستعار ، فيقابل أخته الكترا ويكشف لها عن شخصيته . وتدعوه إلكترا إلى قتل أيجست وكلا يتمنسترا فيفعل بعد تردد، ثم يمضى فى عملية الثأر لأبيه غير هياب ولا وجل. أما إلكترا فيغلبها بعد قتل الخاطئين – ضعف النساء فتكاد تستسلم للندم الأرجوسى القديم ، بينما ربات الانتقام (الإيرينيات) يتأهبن للوثوب على أورست – قاتل أمه – ولكنه يرفض أن

يندم على تصرف يعده حقا وعدلا ، ويزيح الذباب عن وجهه بـذباب سـيفه (معذرة لهذا الجناس غير المقصود!) ويدعو شعب أرجوس ، مـن خـلال أمثولة رمزية يرويها لهم ، إلى طرح ميراث الماضـى الـذليل ومواجهـة المستقبل بأعين مفتوحة صاحبة شجاعة .

فى هذه القطعة المسرحية قوة عقلية غامرة ، فهى تعالج أكبر المسائل الفلسفية بجرأة لا تعرف الثورية _ وفيها شحنة انفعالية عميقـة إذ تـصور الصراع فى نفس أورست ، وإلكترا بل فى نفس كلايتمنسترا الخاطئة . وفيها ايضا – كما فى رائعة سارتر الروائية " الغثيان ": – نفس شـعرى قـوى ، وصور فنية بالغة الإيحاء عميقة الدلالة . لا عجب أن هزت الفرنسيين هزا ، واستجاشت فيهم دواعى الإباء ومكامن العزة وهى تتحـدث عـن الحريـة. فلسفية واجتماعية _ بينما كعوب النازى تدق أبوابها ، وحكومة فيشى العميلة تسعى إلى مساندة الغزاة ، تؤازرها فى ذلك قوى المحافظـة مـن الكنيـسة الكاثوليكية وأصحاب رءوس الأموال وكل المنتفعين بالوضع القائم .

وتصور المسرحية تلك النقلة الحاسمة فى فكر سارتر – النقلـة مـن حرية مجانية كحرية أنطوان روكانتان بطل الغثيـان إلـى التـزام سياسـة واجتماعى بقضايا الوطن ، بل قضايا الإنسانية كلها ، إن أورست يبدأ حياته شابا لاهيا ، لا يعنيه غير أن يعيش حياة الأمراء الأثرياء العابثة ، ولكنـه لا يلبث أن يتفق على واقعة ، إذ يقرعه الدهر ، بمقرعة خطوبة ، ومن ثم يتقدم لحمل مسئوليته ، وما أفدحها من مسئولية ، إذ تتـضمن قتـل الأم _ وهـى عزيزة رغم كل شئ ! – ورفض ألهة طفولته والاضطلاع بعبء أمة كاملة. إنها النقلة من عدمية سارتر الباكرة إلى التزامه الماركـسى اللاحـق ، مـن وجودية فوضوية إلى اشتراكية مسئولة يقول المربى لأورست (أعتمد– هنا على ترجمة د. محمد القصاص للمسرحية : "الذباب أو الندم" ، سلسلة روائع المسرحيات العالمية ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، أول مارس

١٩٦٧) ولها مقدمة قيمة تعرف بسارتر والحركة الفكرية السارترية) :

المربى : واليوم ها أنت شاب ذو يسار وجمال ، محنك كالشيب، حر من كل عبودية وكل اعتقاد ، لا أهل ولا وطن ولا دين ولا مهنة ، حر فى أن تلتزم ما شئت ، عليم بأنه لا ينبغى للإنسان أن يلتزم بشئ قط ، وأخيرا ها أنت ذا رجلا رفيعًا جديرًا بتدريس الفلسفة أو الآثار فى إحدى المدن الجامعية الكبيرة، أبعد ذلك يحق لك أن تشكو؟

(ص ٦٣-٦٤)

فيجيب أورست : كلا أنا لا أشكو ، بل لا أستطيع أن أشكو : فلقد حبوتنى حرية مثل حرية هذه الخيوط التى تتخطفها الريح من بيوت العناكب ، فتطفو على بعد خمسة أشبار من الأرض؟ أنا لست أثقل من هذا الخيط وزنا ، وأنا أعيش مثله فى الهواء . وأعلم أن ذلك من سعادة الطالع ، ولطالما قدرته حق قدره (هنيهة) . من الناس قوم يولدون ملتزمين : هؤلاء الناس لا اختيار لهم ، وإنما قذف فى طريق ما ، وفى نهاية هذا الطريق عمل ينتظرهم هو عملهم ، فيسيرون وأقدامهم العارية تقرع الأرض فيحفيها حصاها ، أفتعتبر أنت من سوقى الأمور متعة الوصول إلى مكان ما ؟ وهناك آخرون ، قوم صامتون يحسبون فى أعماق قلوبهم بحمل الصور الأرضية المضطربة ، تبدلت حياتهم لأنهم فى يوم من أيام طفولتهم ، فى سن الخامسة أو السادسة .. حسن جدا ، هؤلاء الناس ليسوا من عظماء الرجال. وقد علمت ، ولم أبلغ السابعة من عمرى ، بأنى منفّى ، فكنت أدع الروائع والأصوات وضوضاء المطر المنهمر فوق السقوف وتماوج الأنوار ، كنت أدعها تنزلق محاذية لجسمى حتي تتبعثر من حولى ، لأن أعلم أنها من متاع غيرى، وليس لى أن أعدها من ذكرياتى ، لأن الذكريات طعام جسم لمن لهم بيوت وبهائم وخدم وحقول . أما أنا فإنى حر والحمد لله . آه ما أوسع حريتى ! ويا لهذا الغياب العزيز الذى هو روحى"

(ص ٦٤-٦٥)

ومن مواقف المسرحية التى لا تُنسى تلك المحاورات المدببة جـوبيتر وأورست حيث يتبدى إلى سارتر ("فجورة الفكرى" على حد تعبير سـلامة موسى) على أكثر الأنحاء صراحة (للمترجم والأديب الراحل فؤاد كامـل ، الذى بدأ حياته معجبًا بوجودية سارتر ثم انتهى عائد إلى حظيرة الإيمـان ، كتيب عنوانه " الرد على إلحاد سارتر" .

أورست : فلتتفتت الأرض ، ولتصب الصخور على لعناتها وليـذبل النبات لدى عبورى: فكل كونك لا يكفى لأن يقنعنى بالخطأ ، أنت ملك الألهة يا جوبيتر ، وملك الصخور والكواكب ، وملك الأمواج فى البحـار . ولكـن لست ملك الإنسان .

(الحوائط تتلاقى من جديد يظهر جوبيتر مكدودا مقوس الظهر وقـد استرد صوته الطبيعى) .

جوبيتر : لست مليكك ، أنت أيتها الدودة الخالية من كل فطنة . ولكن من ذا الذى خلقك ؟

أورست : أنت . ولكن كان يجب ألا تخلقنى حرًا .

جوبيتر : إنما وهبتك الحرية لخدمتى .

أورست : هذا جائز ، ولكنها انقلبت ضدك ولا حيلة لى ولا لك فـى ذلك. (ص ١٨٤) .

إلى أن يقول **أورست** : لست بالسيد ولا العبد ، وإنما أنا حريتى . لـم تكد تخلقنى حتى خرجت من نطاق سلطانك " .

(ص ١٨٥)

وبعد قليل نقرأ :

أورست : أعرف أنى غريب على نفسى ، خارج عن الطبيعة ، بـل خارج على الطبيعة لا عذر لى ولا ملجأ لى إلا إلىّ ، ولكنى لن أعود تحـت

قانون ، فقد قضى علىّ ألا أخضع لغير قانونى ، ولن أعود إلى طبيعتك : ففيها ألف طريق معبدة وكلها تؤدى إليك . ولكنى لن أسير فى غير طريقى ، ذلك أنى إنسان يا جوبيتر ، وعلى كل إنسان أن يخترع طريقة ، الطبيعة ترهب الإنسان وأنت يا عاهل الآلة ، أنت أيضا تفرق من بنى الإنسان .

جوبيتر : إنك لا تكذب لأنى أبغضهم اذا أشبهوك .

أورست : خذ حذرك ، لأنك قد سجلت على نفسك الاعتراف بضعفك ، أما أنا فإنى لا أبغضك ، فماذا كان منك إلىّ ؟ نحن ننزلق أحدنا ضد الآخر أن نتماس ، كسفينتين ، وأنت إله وأنا حر : كلانا وحيد ، وكلانا في الضيق سواء. ومنذا الذى أخبرك بأنى لم أفتش عن الندم خلال تلك الليلة الطويلة ؟ ولكنى لن أذوق الندم منذ اليوم . ولا النوم (سكوت) .

(ص ١٨٧-١٨٨)

وكذلك محاورات جوبيتر وصفيه إيجست :

جوبيتر : أدر نظرك إلىّ (سكوت طويل) قلت كل إنك مصنوع على مثالى ، كلانا يسعى إلى أن يسود النظام ، أنت فى أرجوس ، وأنا فى العالم، والسر الذى يوقر قلبى هو عين السر الذى يوقر قلبك .

إيجست : ما لدىّ من سر .

جوبيتر : بلى. عين مالدى . سر الآلهة والملوك الأليم. ذلك أن الناس أحرار أحرار يا إيجست . أنت تعلم ، وهم لا يعملون .

(ص ١٤٩)

جوبيتر : أورست يعلم أنه حر .

إيجست (منفعلا يعلم أنه حر ! إذن لا يكفى أن يكبل بالأغلال لأن الرجل الحر فى المدينة ، كالشاة الحرباء فى القطيع ، جدير بالذكر بأن ينشر عدواه فى مملكتى ، وأن يهدم ما بنيت ، أيها الإله القادر ما الذى يمنعك أن تصعقه ؟

جوبيتر (ببطء) أن أصعقه؟ (هنيهة. متعبا مقوس الظهر) إن للآلهة سرا آخر يا إيجست ..

إيجست : ماذا تريد أن تقول ؟

جوبيتر : إن الحرية إذا تفجرتا فى روح إنسان لم تستطع الآلهة شيئًا ضد هذا الإنسان . وإنما على غيره من بنى البشر أن يتركوه يجول ويصول أو أن يخنقوه (ص١٥٢) .

بمثل هذه الأقوال فجر سارتر كالقنابل ثورة فى العقول والضمائر، وجعل من خشبة المسرح – كما فعل إبسن وشو من قبل – منبرا لمناقشة أخطر القضايا ، إذ لم يعد المسرح بين يديه لهوا ولا تسلية ولا مسرحيات محكمه الصنع وحبكات ملفقة ، وإنما هو الجد كل الجد ، جدٌ مرّ كالخبرات التى يمر بها أبطاله ووطنه .

لقد عكس سارتر عامدا كثيرا من المقولات الإغريقية القديمة كاحترام الآلهة ذوى القدرة الكلية ، والشعور بالذنب ، وضرورة التكفير. إن اورست – عنده. يتحدى رب الأرباب جوبيتر (زيوس)، ويرفض بأن يندم على جريمة قتل الأم ، ويدعو شعب أرجوس إلى التحرر من الشعور بالندم.

المسرحية ، إذن ، حوار مع أثر كلاسيكى عظيم من منظور معاصر ، ربما ينقل وجهة نظر الكاتب الحديث. لقد عالج أونيل أسطورة أورست من منطلق التحليل النفسى الفرويدى (مركب أوديب ، مركب الكترا ، الزنا بالمحارم ، الدافع الجنسى ، غرائز العدوان ، خبرات الطفولة ، إلخ ..) وعالجها اليوت من منظور مسيحى يؤمن بضرورة الندم قبل أن ينتقل بطله – هنرى مونتشنزى – من حالة الجحيم الداخلى إلى حالة الغفران مرورا بمرحلة التطهر ، وعالجها جاك رتشاردسون من منظور حديث يرمى إلى تقريب الأسطورة البعيدة إلى عالم اليوم . أما مسرحية سارتر فتعالج

الأسطورة على أساس فلسفى – سياسى معا – يتسق وفلسفة سارتر فى ضرورة الالتزام ، ومشروعية استخدام العنف فى وجه من لا يؤمنون بغيره.

ولاشك فى أن اتساع ثلاثية إسخولوس لهذه التفسيرات المتباينة ، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار – دليل ساطع على ثراء نسيجها وعمق مضمونها ، وقدرتها على اختراق مقولات الزمان والمكان والألسنة لكى تخاطب أبعاد عميقة فى الروح الإنسانية ، وتصلنا بأعمق منابع الخيال ، وطبقات الأسطورة متعددة المعنى ، وقوى الغريزة ، وتأملات العقل ، وأزمات الضمير ونبضات الوجدان . أو كما يقول شفيق مقار فى كتاب دراسات فى الأدب الأوربى المعاصر" _(١٩٧٢) :

" أى شئ يجعل كثرة من فنانى القرن العشرين الكبار ، أمثال سارتر وأنوى وجيرودو ، ينظرون إلى مآسى عصرهم من خلال إحياء جديد وإعادة خلق لتلك المآسى الضاربة فى القدم ؟ هل نضب معين إبداعهم ؟ لا شئ من هذا ولا ذاك . كل ما الأمر أن تلك المآسى القديمة وضعت يدها على موطن قيم إنسانية ومشكلات إنسانية دائمة وباقية ما زالت ذات صلاحية وصدق منذ ذلك الزمان السحيق حتى هذا الزمان".